

البيداغوجيا من تحصيل المعرفة إلى إشكالية المناهج

Pedagogy from the problem of acquiring
knowledge to the problem of effective methods

شعيب مرواني*

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة/ الجزائر

chouaib.merouani@univ-tebessa.dz

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2025 / 12 / 30	2024 / 10 / 23	2023 / 04 / 11

الملخص:

نحاول في هذا المقال تسليط الضوء على البيداغوجيا وتطوراتها التاريخية من خلال تتبعها عبر محطات مختلفة من تاريخها المتداخل مع العديد من الحقول المعرفية الأخرى، إلى غاية استقلالها النسبي عنها، وتحولها من إشكالية تحصيل المعرفة إلى إشكالية الطرائق ودراسة المناهج الناجعة التي تُمكن من اكتساب المعرفة والتعامل معها بدل تحصيلها فقط.

الكلمات المفتاحية: البيداغوجيا، التربية، التعلم، الأديولوجيا.

* شعيب مرواني، جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة/ الجزائر.

Abstract:

In this article, we try to shed light on the concept of pedagogy and its historical developments by tracing it through different stations of its overlapping history with many other fields of knowledge until its relative independence from these fields and its transformation from the problem of acquiring knowledge to the problem of effective methods and study approaches that enable the acquisition of knowledge and dealing with it instead of only obtaining it.

Key words: Pedagogy, education, learning, ideology.

إن البيداغوجيا في مفهومها العام مرتبطة ارتباطا وثيقا بثلاثي العملية التعلّمية؛ المربي، والمادة العلمية، والمتعلم أو المتدرس؛ غير أن هذا المفهوم قبل أن يتبلور إلى علم مستقل -نسبيا- عن تلك الفروع التي تُعنى بالثالث ذاته كالتعليمية وعلم النفس التربوي...، ويتحول من مجرد أساليب متفرقة تعتمد معايير غير مدروسة وطرقا مختلفة يعتمدها المعلم أو الهيئة التدريسية في تقديم المعارف ومتابعة المتعلمين، تجعل من تحصيل المعرفة هدفا أساسيا للعملية التعليمية دون الأخذ باعتبارات أخرى، إلى منظومة متكاملة تهدف إلى تحسين العملية التعلّمية، وتركز على تصميم مناهج تأخذ بعين الاعتبار خصوصية الأطراف الثلاثة (المعلم، المادة، المتعلم)، وخاصة المتعلم الذي يعتبر غاية هذه العملية بعد أن كان مهمشا على حساب الأطراف الأخرى؛ قد مرت بمراحل مختلفة ساهمت في نحت مفهومها المتعارف عليه الآن.

واستنادا إلى هذا يتأسس بحثنا على إشكالية أساسية مفادها: ما هو الخط الذي تتبعته البيداغوجيا للتحويل من مفهومها البسيط المتعلق بنقل المعرفة الآلي من المربي أو المعلم للمتعلم، إلى علم يجعل من المتعلم مركزا للعملية التعلّمية، ويدرسُ المناهج الناجعة التي تستطيع جعل المتعلم يستوعب هذه المعرفة ويتعامل معها بشكل مرن بدل اجترارها؟

نعتقد أن البيداغوجيا -كآلية أو كمنهج لتحصيل المعرفة- ترتبط ارتباطا وثيقا بالإنسان وبطبيعته التي تتطور وتتكيف مع الظروف في سبيل تعلمه واكتسابه للمهارات المختلفة، وعليه فإن تحول البيداغوجيا من المفهوم القديم الذي كان يُعنى بتحصيل المعرفة ويجعلها غاية العملية التعليمية، إلى مفهومها الجديد الذي يركز على المتعلم، ويدرس المناهج التربوية التي تتلاءم معه،

وتتيح له أكبر استفادة من المعارف المُقَدَّمة، يرتبط بتطور حياة الإنسان وتنعكس عليه العوامل النفسية والاجتماعية المحيطة به.

لذلك ولإثبات هذا المذهب الذي ذهبنا إليه، قمنا بمتابعة سيرورة البيداغوجيا عبر محطات تاريخية مختلفة؛ وذلك بعد أن فرقنا بينها وبين بعض المفاهيم الملتبسة بها كمدخل اعتبرناه ضروريا لهذه الورقة، ولأنه من العسير تتبع تطور مصطلح البيداغوجيا عبر كل تقلباته التاريخية، وتمفصلاته الزمانية؛ لالتباسه - خصوصا قديما - مع مفهوم التربية والتعلم وعدم تمايزه عنهما إلا حديثا، وكذلك لانقسامه على حقول معرفية مختلفة ما زال حتى الآن يستفيد من معطياتها ونتائجها كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتعليمية...، فإننا سنعتمد على الانتقال التاريخي وعرض محطات متفرقة لتطور مفهوم البيداغوجيا من التحصيل المعرفي إلى تصميم مناهج اكتساب المعرفة، واختزال محطات أخرى بما يتوافق مع الطرح.

1. تحديدات مفاهيمية:

يقتزن مفهوم البيداغوجيا بمفهوم التربية، وأيضا بمفهوم التعلم إن لم يكن ملازما لهما، حيث كان يُعَبَّرُ عن التربية والتعليم بمفهوم واحد في العصور القديمة، لذلك فمن الصعب تتبع المسار التاريخي للبيداغوجيا، ذلك أنها لم تنشأ مستقلة ولم تنفرد من مجال واحد - كاستقلال علم النفس عن الفلسفة مثلا-، بل إنها كانت موزعة على مجالات عديدة كعلم الاجتماع، علم النفس، علم النفس التربوي، التعليمية... وغيرها من التخصصات الأخرى، ولم تُعتبر علما مستقلا إلا حديثا، فالبيداغوجيا نشأت في ظل هذه العلوم وارتبطت بها وبتطورها، لذلك من الصعب رسم مسار تشكلها وتطورها، لأننا سنطاردنا بين هذه التخصصات دون أن نمسك بها، ورغم هذا فإننا نستطيع تكوين نظرة عامة عنها إذا ما تحدثنا عنها في إطار تاريخ التربية والتعليم وصولا إلى النقطة التي تمايزت فيها حدودها وأصبح التعامل معها تعاملا في إطار مستقل.

لقد أشرنا في السابق إلى أن البيداغوجيا تقتزن بمفهوم التربية وترتبط بالتعلم، وأنها هجينة تستمد معارفها من علوم متنوعة، بل إن البيداغوجيا في مفهومها القديم كانت تعني تقريبا ما تعنيه التربية (٥) لذلك فإن متابعة مسار تطور البيداغوجيا لمعرفة انتقالها وتحولها من فعل التحصيل المعرفي إلى فعل بناء المناهج الفعالة لتحصيل المعرفة، سيضعنا لا محالة أمام تاريخ التربية والتعليم، لكن قبل هذا وجب علينا التفريق بين التربية، والتعلم، والبيداغوجيا كمفاهيم متعلقة مع بعضها البعض.

التربية هي المتابعة وتقويم السلوك، والتعهد بالرعاية السليمة للناشئين، وهي ذات خاصية تراكمية، كونها تنمو وتزيد ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾ (سورة الحج، الآية 05)، بمعنى نمت وارتفعت؛ وقال "الزجاج" «ذلك لأن النبات إذا

هم أن يظهر ارتفعت له الأرض»⁽²⁾، فالتربية هي التأديب والمثا « ربّ الولد ربّاً: وليه وتعهده بما يغنيه وينميه ويؤدبه. فالفاعل: ربّ، والمفعول: مربوب، وربيب»⁽³⁾، وترتبط التربية بفكرة التراكم والاكتساب وتتعلق بزيادة القدرات العقلية والروحية وتقويم السلوك، وتقوم على الإنماء والمرحلية والتدرج إنها «جهود تراكمية، يرفد بعضها بعضاً، والزمن عامل مهم في بلوغ التربية غاياتها. وهذا واضح في قولهم: تربي، وتنشأ، وتثقف؛ فالتنشئة والتغذية والتثقيف لا تكون أبداً طفرة ومرة واحدة، وإنما تتم على مراحل متتالية. وعلى هذا فالإنماء والتدرج يمثلان أهم قانونين يحكمان طبيعة الأعمال التربوية»⁽⁴⁾؛ فإن لم تتميز عملية التنشئة المعتمدة من طرف المربي بتطوير المتعلم وتنميته وتغيّره إلى الأحسن، فإن هذه العملية في هذه الحالة فاشلة ولا يمكن أن تكون ضمن مسمى التربية.

أما التعلم فهو عملية اكتساب معرفة أو سلوك معين يحصل عن طريق الممارسة أو التجربة أو الخبرة، وينجم عنه تغير ملحوظ في المتعلم وسلوكاته وتصرفاته «التعلم في علم النفس هو" أي تغيير دائم تقريبا في السلوك، ناجم عن الخبرة»⁽⁵⁾. وإذا ما علمنا أن التعليم هو الهيكلة والمخطط الذي يسعى المعلم من خلاله إحداث التغيير في المتعلم، فإن التعلم هو الغاية التي يقصدها المتعلم والمعلم، والتعليم هو السبيل لبلوغ هذه الغاية، إذن فالتعلم هو النشاط الذي يشرف عليه المعلم ويقصد إليه التلميذ أو الطالب من أجل اكتساب المعرفة والمهارة والخبرة.

وعلى هذا الأساس نفرق بين التربية والتعلم فرغم تقاربهما إلا أنهما مختلفان، يمكننا اعتبار أن التربية هي الكل والتعلم هو الجزء فالتعلم يندرج في إطار التربية؛ باعتبار أن التربية مرحلة أولى وهي القاعدة الأساسية للتعلم فبعد التربية يأتي التعلم، وتبقى التربية حاضرة في التعلم ولا تنتهي ببدايته.

إن التربية شاملة لجميع الجوانب النفسية والاجتماعية والروحية باعتبارها عملية تكاملية مؤسَّسة، إنها وسيط يؤدي رسالة ويحدد مجالات العمل ويرسي معايير أخلاقية تقوم بعملية مزدوجة فهي تسعى للحفاظ على ما هو جيد من المكونات الثقافية، وتحاول بذر أفكار ومعارف وعادات جديدة إنها الأسلوب والأداة التي تضع الإنسان في بداية طريق النمو والاستفادة من الوسط الاجتماعي⁽⁶⁾، وهي كلُّ وما التعلم إلا جزء من هذا الكل، لأنه يقتصر على تنمية التفكير، ويركز على اكتساب المعرفة والخبرات والمهارات الجديدة بعد أن تمهد له التربية فلا تعلم بلا تربية.

إن هذه التحديدات تساعدنا في فهم البيداغوجيا وتحديد مفهومها المتماهي مع مفهوم التربية، فإذا نظرنا إلى البيداغوجيا كما يُعرّفها عالم الاجتماع الشهير "دوركهايم **David Émile Durkheim**" فهي نظرية تطبيقية في التربية تستمد مفاهيمها من علم النفس وعلم الاجتماع؛ إنها لا تتعد عن مفهوم التربية والتعلم لكنها لا تكونهما خصوصا بعد استقلالها عنهما، إذ إن البيداغوجيا إن صح التعبير نوع خاص من التربية يقوم على تحديد خطط التربية والتعليم، لذلك فالتربية هي مادة البيداغوجيا وإن كانت التربية أشمل من التعلم فإن البيداغوجيا تضع في إطار اهتماماتها التربية والتعليم، إنها في مقام الهندسة بالنسبة للعمّان، والبيداغوجي بمثابة المهندس الذي يقع على عاتقه تصميم مخطط صحيح يجعل من سيرورة عملية البناء سلسلة وتتم بشكل صائب، فكلّهما يدرس الظروف المحيطة بالعملية ويحلّله ويتدارك الأخطاء من أجل بناء مثالي وناجح.

إن البيداغوجيا متعلقة بالطريقة والآلية، إنها منهج تطبيقي للتربية، تسعى لتأطير التربويين وتكوينهم، ودراسة الطرائق الممكنة والناجعة لإنجاح سيرورة التعلم، والتعامل مع إشكالاته المختلفة، وعليه يمكننا أن نتفق على أن

البيداغوجيا هي علم تصميم المناهج التربوية وتطبيقها، وهذا بطبيعة الحال المفهوم الحديث والحالي للبيداغوجيا أما أصلها فيعود إلى الثقافة اليونانية وهي مشتقة من كلمة: "agogos" التي تعني "القائد" في اليونانية، و paidagogos هو العبد الذي يقود الأولاد من وإلى المدرسة، وهو أيضاً من كان يعلمهم الأخلاق ويدرسهم بعد المدرسة وبمرور الوقت، أصبحت كلمة pedagogue تعني ببساطة "المعلم" واليوم للكلمة طابع ذو طراز قديم، لذلك غالباً ما تعني مدرساً مُمِلاً وخائفاً. ومع ذلك، لا تزال كلمة pedagogy "علم أصول التدريس" مستخدمة على نطاق واسع، وغالباً ما تعني ببساطة "التدريس". والتدريب التربوي pedagogic training هو ما يحصل عليه كل من يتخصص في التعليم (7).

والبيداغوجيا في مجملها (كتربية بمفهومها القديم وكعلم تصميم مناهج التربية في مفهومها الحديث)، تتعلق بالإنسان وتسير في ركب تطوره التاريخي حتماً، وإذا سرنا وفق هذا الفرض فإننا سنبدأ الحديث عن نشأة البيداغوجيا وتطورها باعتبارها موازية للتربية وهما التحصيل المعرفي، وعلماً لدراسة وتصميم المناهج التربوية في عصرنا الحالي، وهما بناء المناهج الملائمة للعملية التربوية والتعليمية.

2. البيداغوجيا البدائية:

علينا أن ننبه مجدداً إلى أن مفهوم البيداغوجيا في المراحل التاريخية الأولى للإنسان كان متماهاً مع مفهوم التربية والتعلم، ولم يتميز عنهما إلا حديثاً، بالتالي فإن البيداغوجيا في المرحلة البدائية كانت آلية غريزية هدفها الأساسي اكتساب معارف ضرورية ومهارات معينة كالصيد وطرق تحصيل الطعام وغيرها، تساعد على العيش وتسهله؛ فكانت «تربية هدفها الوحيد أن

يقلد الناشئ عادات مجتمعه وطرز حياته تقليدا عبوديا خاصا فتكوين الناشئة في تلك المجتمعات تكوين غريزي آلي يقتصر على إعدادهم إعدادا يمكنهم من إرواء الحاجات المادية من مأكّل وملبس ومأوى والطفل فيها يتدرب شيئا بعد شيء على مختلف الأعمال التي تمارسها القبيلة»⁽⁸⁾، وقد استمر نقل المعارف الآلي مراحل طويلة من تاريخ الإنسان، جعل من الصعب فصل مفهوم البيداغوجيا عن التربية فيها، حيث يمكننا فهم الأمر على أن التربية مسؤولة عن الحفاظ على الإرث الاجتماعي ونقل المعارف والمهارات عبر الأجيال، والحرص على تطوير النشء وزيادة قدراتهم العقلية والروحية وتقويم سلوكهم؛ والبيداغوجيا هي الآلية المسؤولة عن هذا النقل والأسلوب الذي تتم به العملية، وهي غريزية في المرحلة البدائية، وخاضعة لمنظور المجتمع والسلطة الدينية، وما يقول به العرف وما يقدمه المعلم في مراحل متقدمة، ولم يتم الالتفات إلى الاهتمام بآلية النقل بما يتلائم مع المتعلم بقدر ما كان الاهتمام منصبا على ما يُقدّم من معرفة ومواد، لقد كانت التركيز على التحصيل المعرفي؛ وهذا تقريبا الخط المشترك في كل المراحل كما سنرى.

3. البيداغوجيا في الحضارات القديمة:

مع نشوء الحضارات انتقل الإنسان إلى مرحلة جديدة، مرحلة أكثر انتظاما؛ وهذا ما نتج عنه تَغَيَّرُ في نمط المعيشة فرض عليه تغييرا في نمط التفكير وتعديلا لطرق التعامل مع الأمور، ومن هنا ابتكر الإنسان وسائلًا وسبلا جديدة في التربية والتعليم، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بـ **بيداغوجيا الحضارات** لارتباط هذه البيداغوجيا بمرحلة الحضارات الإنسانية الكبرى، وقد

بنيت هذه البيداغوجيا في عمومها على أساس ديني سلطوي يقوم بتكوين نخبة من المربين لخدمة مصالح الدين والمُلك والسياسة.

ويتمثل المربون المسؤولون عن هذا التكوين في الكهنة، ورجال الدين، والفلاسفة... على حسب الحضارة ونظامها، ويقوم هؤلاء بسن قواعد ومناهج تربوية تُطَوِّع المتعلمين وتربّيهم على الطاعة من أجل ضمان استمرار الحكم وازدهار الدولة، وتركز طرائقهم على التحصيل المعرفي، فعلى الطالب أن يلم بكل المواد التي يقدمها له المعلم وإن حصل تقصير منه في هذا الجانب يتعرض للعقاب.

4. عند المصريين القدامى:

في مصر مثلاً ارتبطت البيداغوجيا بأساس ديني يقّس العلم ويعتبره وسيلة لبلوغ المجد والتقرب من الأسرة الحاكمة، ويسعى البيداغوجيون المتمثلون في الكهنة إلى الحفاظ على مكانتهم من خلال سنهم قواعد التعليم ونظام المكافآت والعقاب «أولى المصريون دوماً اهتماماً خاصة بالتربية. ومن وصية أحد حكمائهم لابنه: "امنح قلبك للعلم وأحبه كما تحب أمك، فلا يعلو على الثقافة شيء»⁽⁹⁾، وقد اهتمت مصر بالبيداغوجيا والتعليم لكن كان هذا الاهتمام مقتصرًا على طبقة دون أخرى: كما يقول "ماسبيرو Maspero" «وينتسب المعلمون جميعهم تقريباً إلى الطبقة الأولى ويستهدفون خاصة الإبقاء على سيطرة الكهنة وسلطان الطبقات العليا وإخضاع الطبقات الدنيا

لها»⁽¹⁰⁾، وتطبق هذه النظرة تقريبا على بقية الحضارات الأخرى تقريبا باستثناء الحضارات التي كانت تتميز بنظام ديمقراطي كالحضارة اليونانية.

5. عند الهنود:

كان الكهنة البراهماتيين هم المسؤولون عن الإشراف البيداغوجي والعملية التربوية التعليمية حيث «كانوا القائمين وحدهم على أمور التربية. أما المرأة، التي كانت مرتبطة بالرجل ارتباطا مطلقا، فقد كانت محرومة من أية ثقافة. وأما الفتيان، فيبدو أنه وجدت لهم مدارس ابتدائية في جميع العصور»⁽¹¹⁾، وكانت لهذه المنظومة التربوية نظام يبيح العقاب الجسدي «كان المعلمون يستخدمون - عدا العصا - بعض الوسائل الأخرى المبتكرة - كأن يصبوا الماء البارد على المتعلم، أما الدراسات العالية فكانت وفقا على طبقة الكهان الذين كانوا يدرسون، قبل العصر المسيحي بكثير، الخطابة والمنطق والفلك والرياضيات»⁽¹²⁾، وقد ارتبطت البيداغوجيا في هذه الأمم بالسلطة الدينية خصوصا، وتميزت بالتلقين المباشر للمعرفة من المعلمين، والطاعة العمياء لكل ما يقولونه، فآلية التعليم ونقل المعرفة في هذه المراحل تلقينية بامتياز، لا تعترف بالمتعلم وتمنح السلطة للمادة المعرفية، وللمعلم الذي يستمد سلطته من المؤسسة الاجتماعية والدينية التي يخدمها.

6. البيداغوجيا اليونانية أساس البيداغوجيا المعاصرة:

تستند البيداغوجيا اليونانية إلى فلسفة شخصية متحررة وذلك له علاقة بنظام الحكم الديمقراطي السائد فيها «وللإغريق فضل السبق في العمل على حل مشكلة منح الفرد مثل هذه الحرية حرية الابتكار، والحرية في الحكم وإبداء الرأي التي من شأنها أن تساعد على التقدم والنجاح في ظل نظام اجتماعي وأداة اجتماعية تضمن حفظ حقوق الجميع وتكفل الاستقرار الاجتماعي تلك هي مشكلة الحياة الاجتماعية أو مشكلة المجتمع المدني»⁽¹³⁾، وقد كان تأثير النظام التربوي اليوناني واضحا على بقية الحضارات، ففي العصر الحديث ينطلق التأصيل للبيداغوجيا من الحضارة اليونانية باعتبار أن هذه اللفظة يونانية "Pedagogy" التي تنقسم إلى قسمين: "Pais" وتعني طفل أو ولد، و"Ogogé" بمعنى الإرشاد والتوجيه، وقد كانت وظيفة العبد عند اليونانيين توجيه الطفل وتعليمه، فالبيداغوجي عند الإغريق هو المربي، أو المشرف على تربية الأولاد.

ولعل أهم نموذجين في البيداغوجيا اليونانية هو النموذج الإسبرطي القائم على التكوين العسكري «في سبارتا، تتم التوضيحية بالعقل إلى الجسد؛ القوة البدنية والمهارة العسكرية هي الصفات المرغوبة؛ الرعاية الوحيدة هي تدريب الرياضيين والجنود. الرصانة والشجاعة هما نتيجة هذا التعليم الأحادي الجانب»⁽¹⁴⁾، والنموذج الأثيني المبني على التكوين السياسي المدني «في أثينا، مع عدم إهمال الجسد، فإن الشغل الشاغل هو تدريب العقل؛ أين يتم دفع الثقافة الفكرية إلى أقصى الحدود»⁽¹⁵⁾، حيث اهتمت إسبرطة بتطوير طرق ومناهج تكوين عسكرية للأطفال منذ الصغر؛ تعتمد قاعدة إما الحياة وإما الموت، إذ كان يُعرض الطفل على مجلس مختص في هذا الشأن وإذا ما وجد

أن في الطفل ضعفا ترك في البرية ليشند عوده، فإن مات فهذا خير له وللدولة وإن عاش أُعيد لأهله ليُربى تربية قاسية «كانت هذه التربية تفتقر إلى العلوم العقلية والجمالية، فطابعها الأساسي الناحية العملية والخلقية. ويلخص لنا بلوتارك مادة هذه التربية في العبارات الآتية: "لم يُعَنِّ الاسبرطيون بالتعليم إلا بالقدر الضروري جدا. أما بقية التربية فلم تكن ترمي إلا إلى إعداد الاسبرطيين للحكم وتحمل مهام الأعمال ثم للقتال والغزو..."»⁽¹⁶⁾، أما نموذج التربية في أثينا فهو مختلف تماما عن إسبرطة، فقد كانت تنشئ تكوين فرد مثالي كامل العقل قوي الجسد مرهف الحس ذو أدب وذوق، لذلك اعتمدت نمطا متنوعا في تربية الأطفال من خلال تعليمهم الرياضيات والموسيقى والرسم، وتدريب الأطفال على الفروسية ومختلف الرياضات التي تقوي البدن.

وكانت المسؤولية الكبرى تقع على الوالدين في إشباع الطفل بهذا التنوع المختلف، وإذا كان توجه إسبرطة في التربية يركز على الجانب البدني للطفل بدرجة أساسية مع عدم الاهتمام بالجانب العقلي والاجتماعي، فذلك راجع للمنظومة التي تنتهجها الدولة كون أهدافها عسكرية عكس أثينا «كل ما كانت تطلبه الدولة الأثينية من الفرد أن يسير في حياته بالحكمة يحدوه العقل في تأدية الواجبات الملقاة على عاتقه. وهو حر في الكيفية التي يقضي بها وقت فراغه.»⁽¹⁷⁾، وعلى هذا الأساس كان الاختلاف جوهريا في الأنظمة البيداغوجية بين الحكومتين، فأثينا ترى أنه لا يمكن بناء جيل يخدم الدولة استنادا إلى نظام عسكري مستبد فمثل هذه النتائج: «لا يمكن الوصول إليها باتباع نظام تربوي يسيره نظام اشتراكي استبدادي كذلك النظام الذي كان مشعا في إسبرطة. وكانت أثينا تعمل على حفظ الأسرة - على العكس من

إسبرطة - باعتبارها وسيلة من وسائل نمو شخصية الطفل وتشكيلها» (18)، وهذا هو الفارق الجوهرى بين النظامين.

إن النموذج اليوناني في التربية هو الأساس التأصيلي للدراسات المعاصرة، حيث حققت مناهجهم التربوية على اختلافها سبقا هائلا في تكوين الأفراد وتربيتهم: منذ البداية، تم منح التعليم مكانة الفن - فن التدريس، وقيادة الأطفال إلى المعرفة. يُذكرنا هذا المفهوم بأن مهنة المعلم ظهرت لأول مرة في اليونان القديمة. في ذلك الوقت، كان دور المربي المعلم يؤديه العبيد، الذين تم تكليفهم بالمهمة النبيلة المتمثلة في اصطحاب أطفال السيد إلى المدرسة، والاعتناء بمظهرهم الجسدي، ومرافقتهم أثناء الواجبات المنزلية واللعب. يُعتبر سقراط الأب المؤسس للتعليم على نطاق واسع. (19)

7. بيداغوجيا النفعية الرومانية:

إذا ما انتقلنا إلى التربية الرومانية فهي لا تختلف عن بقية الحضارات الأخرى تقريبا، حيث اعتمدت بيداغوجيا التربية الأسرية كمنهجية معتمدة في تكوين النشء، مع التركيز على الجانب الجسماني من أجل تكوين جنود مقتدرين، واعتمد الرومان في تربيتهم على مفهوم المثال الأعلى والبراعماتية «لم يكن لدى الرومان معلمون باستثناء والديهم والطبيعة. كان التعليم ماديا وأخلاقيا بشكل حصري تقريبا، أو بالأحرى عسكريا ودينيا» (20)؛ وقد انقسمت التربية الرومانية إلى قسمين: التربية القديمة التي كانت رومانية بحتة وتستند إلى تكوين فرد روماني صالح؛ وأساسات هذا النمط يرتكز على رؤية براغماتية في التكوين، أما الحديثة فقد تأثرت بالبيداغوجيا الإغريقية واستفادت منها في تربية الأطفال، ورغم هذا التأثير إلا أنها مالت للنموذج الاسبرطي في التربية

والتعليم على حساب النموذج الأثني «لم يقلد الرومان الأثينيين في سعيهم النزيه لتحقيق تطور جسدي وفكري مثالي. عملت روما من أجل غايات عملية وكانت تسترشد فقط باعتبارات المنفعة؛ لم يكن لديها أي اعتبار للمثل؛ كان هدفها ببساطة تعليم الجنود والمواطنين الذين يجب أن يكونوا مطيعين ومخلصين.»⁽²¹⁾، ثم تأثرت البيداغوجيا الرومانية لاحقا بالتعاليم المسيحية بعد اعتماد المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية.

ولم تكن البيداغوجيا الرومانية محددة بمنهج واضح ومؤسسات وطنية موحدة إلا في وقت متأخر وتحديدا في عهد "كوينتيليان Quintilian" حيث كانت تعتمد على اجتهاد المعلمين وهذا ما يقول شيشرون: «لم يرغب أسلافنا في أن يتم تعليم الأطفال وفقاً لقواعد ثابتة، تحددها القوانين، يتم إصدارها علناً وجعلها موحدة للجميع»⁽²²⁾، وما يمكن استخلاصه عن البيداغوجيا الرومانية هي أنها بيداغوجيا عملية تعتمد نمودجا نفعيا يقوم على تكوين مواطن روماني مخلص ويرتكز على التكوين البدني والأخلاقي والأدبي.

8. البيداغوجيا في الشرائع الدينية السماوية:

إذا كان من الصعب تتبع تطور البيداغوجيا ورصد تقلباتها وأنماطها المختلفة بين المجتمعات والشعوب والثقافات المتنوعة، كان لزاما علينا أن نتوقف عند محطات متفرقة تلك التي شهدت فيها البيداغوجيا نقلة نوعية من نمط إلى نمط، لذلك فإننا سنحاول تسليط الضوء على البيداغوجيا في الأديان

السماوية، ونحن بهذا لا نقوم بتحقيب المراحل بترتيب زماني معين، إذ إن هذه الأديان تزامنت في ظهورها مع حضارات وإمبراطوريات مختلفة؛ كما هو الحال مع المسيحية التي أثرت تعاليمها في أسلوب التربية والتعليم الروماني، غير أننا نركز على التميز أو الاختلاف الحاصل؛ فتعاليم المسيحية التربوية رغم تزامنها تاريخيا مع إحدى مراحل الإمبراطورية الرومانية إلا أن توجهاتها البيداغوجية كانت مختلفة وركزت على التسامح ونبذ العنف وهو شيء لم يكن الرومان يؤمنون به كثيرا.

لقد لاحظنا أن التطور التاريخي للبيداغوجيا الذي اتخذ سيرورته من النشأة البدائية إلى بيداغوجيا الحضارات مرتبط بالتغيرات التاريخية، والاجتماعية وتطور نمط حياة الإنسان، وسنجد هنا أن البيداغوجيا ستأخذ صبغة أخرى مع الشرائع الدينية السماوية (اليهودية والمسيحية)، وأنها ذات طبيعة مختلفة نوعا ما عند العرب في الجاهلية والإسلام.

أ. عند اليهود:

اعتمد اليهود كغيرهم من الشعوب على البيداغوجيا المنزلية في تربية الأطفال وكان أساس هذه التربية دينيا يعتمد مفهوم القدوة، ولم يكن للتربية العقلية وازع كبير عندهم «كانت التربية لدى العبريين في العصور الأولى تربية أسرية منزلية. فلا تقع لديهم، قبل ظهور المسيحية، على أي أثر لمدارس عامة للصغار على الأقل. بل كانت حياة الأسرة هي قوام هذا المجتمع البدائي الذي كان يجهل تقريبا معنى الدولة والرئيس، ولا يتخذ رئيسا

«إلا إله»⁽²³⁾ وكانت التوراة هي اللبنة الأساسية في هذا التكوين منها يستمد المعلم مادته المعرفية في صياغة دروس وعظية وأخلاقية.

لم يلبث أن تغير هذا التوجه مع ظهور المسيحية وانتشارها على حساب اليهودية فاشتراط الكاهن "جوزيا بن جامالا Jose Ben Gamala" وجود مدارس من أجل التكوين الفكري، ويظهر هذا من خلال البنود التي يضعها التلمود في شروط المدرسة؛ حيث يرد فيه «إذا لم يتجاوز عدد الأطفال خمسة وعشرين، قاد المدرسة معلم واحد، وإذا جاوز هذا العدد، فعلى المدينة أن تأجر مساعدا له، وإذا جاوز الأربعين لزمها معلمان»⁽²⁴⁾، وقد تركّز التعليم على القراءة والكتابة وتدارس التوراة والتاريخ اليهودي.

ومما لا شك فيه أن نمط التربية اليهودي اعتمد على قاعدة عنصرية تقوم على تكوين جيل متعصب ووفي لليهودية -وما زال يعتمد هذا-، مؤسسا على خرافات دينية وتحريفات يتم زرعها في الأطفال بداية من مقولة "شعب الله المختار، مروراً بقضية هيكل سليمان والوطن القومي لليهود..." وغيرها من الأباطيل التي لا أساس لها.

ب. عند المسيحيين:

يمكننا القول بأن البيداغوجيا في الشرائع السماوية تستند إلى الكتب المقدسة وتعاليم الأنبياء مع العديد من الفوارق الأساسية التي ترجع إلى طبيعة المجتمع الذي يحتضن هذه التعاليم، فالبيداغوجيا المسيحية بدأت قديمة حيث اعتمدت تكويناً عقدياً سليماً، وكانت تنتهج نموذج المثل الأعلى الذي يتجسد

في المسيح وتهتم بمعرفة الرب، وقد ساعد هذا التوجه على تكوين أخلاقي جيد للأفراد.

لكنها سرعان ما انحرفت بانحراف هذه الشريعة السماوية على يد أبنائها ومتبنيها، وصارت البيداغوجيا المسيحية، قائمة على تكوين أفراد لهم طاعة عمياء للمؤسسة التعليمية التي كانت تتجسد في الكنيسة آنذاك لذلك تراجع العقل وساد الجهل والظلام في العصور التي حكمت فيها الكنيسة «كانت الأساليب المستخدمة في المدارس الكنسية في العصور الوسطى متوافقة مع روح العصر، عندما لم يكن الرجال مهتمين بالحرية والحرية الفكرية؛ وعندما فكروا في تعليم العقائد أكثر من التفكير في تدريب الذكاء. كان المعلمون يتلوون أو يقرؤون محاضراتهم، والتلاميذ يحفظونها عن ظهر قلب. كان الانضباط قاسيا. كانت الطبيعة البشرية الفاسدة غير موثوقة.»⁽²⁵⁾، وبقي الوضع على هذه الحالة حقبا من الزمان، كانت أساليب التعليم فيها وأنماط التربية عقيمة خاضعة لسلطة الكنيسة التي استغلت الدين لمصلحتها الدنيوية، فساد الجهل وانتشرت الخرافة إلى أن تم كسر هذه القيود مع عصر النهضة وعصور الإصلاحات وعاد الاهتمام بالتربية والبيداغوجيا ليتطور أكثر فأكثر ويتبلور كعلم له حدوده في مطلع القرن التاسع عشر.

ج. عند العرب والمسلمين:

إذا كان التتبع التاريخي لمسار تطور البيداغوجيا عند مختلف الأمم والشعوب صعبا، فالعرب لا يستثنون من هذه القاعدة فهم من الأمم التي كانت عندهم طرائق مختلفة لتربية أبنائهم وتعليمهم، ولأن التاريخ العربي طويل وحافل فلا يمكننا التفصيل هنا وسنكتفي بذكر إشارات فقط.

في العصر الجاهلي كان العرب يركزون على الجوانب الأخلاقية في تربية الأولاد وتنشئتهم على مكارم الأخلاق كالشجاعة والكرم والعفة...، ولعل أهم ما كانوا يبنون عليه تربيتهم هو العصبية القبلية، فشرف الفرد من شرف القبيلة وكرامته من كرامتها والعكس، فكانت حياة الطفل تنتمي إلى القبيلة وما يقوم به من سوء أو خير ينعكس على القبيلة كما يقول "دريد بن الصمة":

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ ... غَوِيْتُ وَإِنْ تَرَشُدْ غَزِيَّةٌ أَرَشُدْ. (26)

وإلى جانب التربية الأخلاقية والاجتماعية التي تتحكم فيها أعراف القبيلة وسلطتها، لم يهمل العرب الجانب البدني في تربية الأطفال وتعليمهم الفروسية والرماية، وإعدادهم للغزوات والغارات، وكانت التربية عندهم على ضربين ما اختص به البدو وكانت تربية بسيطة أقصى غايتها مواجهة الصحراء وتحصيل القوت، وتربية الحضر وهي تربية أبناء القصور وأبناء الملوك، وكان يحصل فيها الطفل على تعليم جيد ويطلع فيها على مختلف العلوم والآداب من فلك ورياضيات وهندسة.

ومع مجيء الإسلام اختلفت المعايير تماماً فقد قضى على العصبية القبلية تقريباً⁽²⁷⁾، ولم تعد القبيلة وفضاؤها مكاناً لتربية الأطفال بل صار المسجد هو المكان المناسب للتربية، وكان الأئمة والفقهاء هم المسؤولون عن تربية الفتيان بما يتوافق مع تعاليم الدين الإسلامي، وسرعان ما تطور الأمر واستُبدِل المسجد بالمدرسة لأنها كانت «أكمل وأوفى بأغراض الدراسة المتصلة بها ولسكنى الطلاب المنقطعين عن العلم»⁽²⁸⁾، وقد اعتمد المربون على ما جاء به الإسلام من تعاليم في تكوين الطالب واشتروطوا شروطاً للمعلم ولطالب العلم.

وقد تطورت العملية التربوية عندهم بفضل المناظرات والسجلات العلمية والأدبية خاصة في الفترة الأموية والعباسية، ومن المعروف أن أكثر ما اعتمد عليه العرب في التربية هو نمط التلقين والرواية خاصة في تحفيظ القرآن والأشعار والأخبار حيث يقول أحدهم «أول العلم الصمت، والثاني الاستماع الثالث الحفظ، والرابع العقل والخامس النشر»⁽²⁹⁾، لذلك كان الحفظ منهجية تعليمية أساسية يشترطها المربون ويجعلونها أهم من الفهم.

ولقد أولى المربون المسلمون أهمية للجوانب النفسية في اختيار المتعلم لما يوافق ميوله ورغباته، وكان لهم السبق في هذا المجال حيث اهتموا بدراسة الرغبات والميل والقبالية المتعلقة بالمتعلم، لتكون قاعدة في توجيهه إلى ما يفيد، ونجد هذا عند ابن سينا حين يقول: «ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية ولكن ما شاكل طبعه وناسبه، وإنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ما كان أحد

غفلا من الأدب وعاريا من صناعة/.../ ولذلك فينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولا طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكائه فيختار له الصناعات بحسب ذلك»⁽³⁰⁾، كما ركزوا على دور المعلم في هذا الاختيار ولم يُترك الطالب لأهوائه؛ فالاختيار يكون من حق الطالب لكن التوجيه يكون من طرف المعلم الذي يُصَوِّبُ الطالب إن كان اختياره غير ملائم «ويرى المربون المسلمون - وهم في هذا أيضا يوافقون المربين المحدثين - أن اختيار العلم تبعا للموهبة والقابلية لا يقوم به الطالب وحده ولا المعلم وحده، بل يقوم به كلاهما وقد يشترك معهما في ذلك والد الطالب. ومما ينصح الزرنوجي في كتابه «تعليم المتعلم»، ألا يختار الطالب نوع العلم بنفسه بل يفوض أمره إلى الأستاذ فانه قد حصل له من التجارب في ذلك، فهو أعرف بما ينبغي لكل واحد وما يليق بطبيعته»⁽³¹⁾، وبالتالي فقد شددوا على أهمية دور المعلم في العملية البيداغوجية وثنّوا ما يقوم به واعتبروه عنصرا فعّالا وفاعلا لا يستقيم التعلم بدونه، ولعل هذا المبدأ يتوافق مع أحد المبادئ المهمة التي نادت بها البيداغوجيا الحديثة وهي مراعاة ميل الطالب بدل إجباره على التحصيل المعرفي، وهو يتوافق أيضا مع مبدأ الانتقاء الذي ساهم في بلورة البيداغوجيا كعلم قائم بحد ذاته.

9. البيداغوجيا في العصور الحديثة:

سنضطر أن نقفز مراحل تاريخية عديدة ونختزلها بالحذف، فنتجاوز مرحلة عصر النهضة ⁽³²⁾ والإصلاحات التربوية لـ"مارتن لوثر **Martin Luther**" وجهود "جان جاك روسو **Jean-Jacques Rousseau**" لنستقر في القرن التاسع عشر؛ حيث تمخض عن إصلاحات عصور التنوير ومحاربة سلطة الكنيسة ثورة في العلوم، صاحبها تطور في مجال العلوم الإنسانية وتقدم في علم الإجماع والنفس، ففي نهاية القرن التاسع عشر: كان تطوير مجالات علمية مثل علم الاجتماع وعلم النفس مصحوبًا بظهور علم أصول التدريس كعلم تطبيقي أي بدأ يُنظر إليه على أنه علم حقيقي. يتم التعامل مع علم أصول التدريس الآن كعلم مع إدراك أن هدفه النهائي، ليس الوصف أو الشرح، بل توجيه عملية التدريس والتعلم بدلاً من ذلك. وهذا يعني أنه مجال علمي قد يعلمنا فقط كيفية التدريس ⁽³³⁾، فصارت البيداغوجيا وفق هذا التحول النوعي مستقلة تقريبًا كعلم يعالج تقنيات وطرائق تكوين المربين ومتابعة المتعلمين، بعد أن كانت رهينة لقوالب جامدة تابعة لحقول معرفية أخرى.

ولعل السبب الأول الذي ساهم في هذه الاستقلالية وفي انفصال البيداغوجيا عن الحقول التي كانت تتقاسمها، هي الإصلاحات التربوية وجهود المنظرين الألمان أمثال "هربرت سبنسر **Herbert Spencer**" و"ألكسندر بين **Alexander Bain**" فقد أسس "هربرت **Herbert Spencer**" نظريته التعليمية لتستهدف تربية الفرد وربطها بعلم النفس وبالمبدأ الأخلاقي، وأدخل فيها مبدأ الانتقاء القائم على اختيار المعارف الملائمة لتربية وتعليم الأفراد حيث يرى "هربرت **Herbert Spencer**" أن «غرض التربية ينبغي أن يكون

الحصول بأكمل وجه ممكن على المعرفة المهيأة لإنماء الحياة الفردية والاجتماعية في جميع وجوها والاقتصار على نظرات عابرة إلى الموضوعات التي لا تحتل هذا الشأن في ذلك الإنماء»⁽³⁴⁾؛ وعملية انتقاء هذه المعارف وتقديمها بشكل مناسب للمتعلم هو ما يشكل المنظومة التربوية النموذجية التي يجب اتباعها كخطوة في هذه العملية التي صارت تمثل المفهوم الحديث للبيداغوجيا.

لقد ساهم مبدأ الانتقاء في نقلة مهمة للبيداغوجيا من مفهومها كفعل ينطوي تحت مظلة التربية ويقوم على تحصيل المعرفة إلى استراتيجية في اختيار المعارف الملائمة للمتعلم وتقديمها له، وتحولها من آلية جامدة إلى استراتيجية خلاقة تُعنى بعملية انتقاء المعارف وتصميم المناهج التربوية، وسار كثيرون على نهج "هربرت **Herbert Spencer**" فركزوا على تقديم المعارف عن طريق الانتقاء، مع التأكيد على نشاط المعلم وعلاقته بالمتعلم داخل القسم، واستثمار علم النفس وعلم الاجتماع في المنظومة البيداغوجية.

إن مبدأ الانتقاء الذي أسس له "هربرت **Herbert Spencer**" هو ما شكل الحدود الواضحة للبيداغوجيا كعلم مستقل نسبيا عن مجال التعليمية، وعلم النفس؛ ولكن رغم هذا التطور والاستقلال الذي حققته البيداغوجيا، إلا أنها بقيت ترزح تحت وطأة السلطة العليا للمربي، أو المرشد، وتقع تحت نير تقديس المواد التي يقدمها الأخير بصفتها مادة غير قابلة للنقاش، وهذا ما شكل أزمة حادة نجمت عنها ثورة إصلاحية كبيرة في مطلع القرن العشرين.

10. الثورة التربوية:

في القرن العشرين حصلت ثورة تربوية نوعية تمخض عنها انتقال البيداغوجيا-كعلم تصميم المناهج التربوية- إلى مرحلة جديدة تماما أصطلح عليها "التربية الحديثة".

وقد انتفضت "التربية الحديثة" على مناهج المدرسة التقليدية ونادت بتجاوز قوالبها الجامدة، ودعت إلى إعادة هيكلة المنظومة التربوية البيداغوجية كاملة، و«إلى تغيير إطار المدرسة التقليدي، إطار الصف والمعلم والطالب، داعية إلى تعليم يتم في غير هذا الإطار، مبشرة بتحطيم جدران الصف، مستعينة في ذلك كله بالوسائل التكنولوجية الحديثة التي تدعو إلى إدخالها في التربية من مثل الراديو والتلفزيون والأفلام وآلات التسجيل وسواها من وسائل البث الجماعية، ومن مثل التعليم في الهواء الطلق أو التعليم المبرمج أو التعليم عن طريق العقول الإلكترونية وسائر وسائل التعلم الذاتي (AutoEducation)»⁽³⁵⁾، حيث سعت لإلغاء المدرسة وتجاوزها قائلة بأن التربية نشاط تراكمي يصاحب الإنسان كامل حياته وليس فترة التمدرس فقط، ومراعاة هذه الجوانب أثناء تصميم المناهج التعليمية أمر مهم للغاية وفعال في إنجاح عملية التعلم، ويمكننا أن نجمل مبادئ هذه الثورة التربوية كالتالي:

أ. أولوية التربية على التعليم: وكان هذا بسبب التركيز المفرط على المادة العلمية وأيضاً على المعلم، وإهمال الجوانب التربوية والنفسية المتعلقة بالمتعلم «إن التربية الحديثة أرادت أن تُقَدِّم التربية على التعليم وأن تجعل لها المقام الأول. كما يظل من الصحيح أن نقول - في الجملة -

إن الهدف الأساسي للمدرسة التقليدية هو تزويد الطالب بقبضة من المعلومات والمعارف، دون أن تعنى عناية تذكر بتربية شخصيته في جوانبها المختلفة.⁽³⁶⁾ ويرجع هذا إلى أنماط التعليم السابقة التي لم تتمكن من تجاوز نفسها، وغياب نظريات مستقلة تتعلق بأصول التدريس إذ كان أساس العملية التعليمية يعتمد على حشو الطالب بأكبر عدد ممكن من المعارف والمعلومات، دون تأسيس تربوي له وكما نعلم فإن التربية مرحلة سابقة على التعلم وهي القاعدة الأساسية التي يثمر فيها التعلم إن كانت سليمة.

ب. إدخال علم النفس الحديث إلى المنظومة التربوية التعليمية: بالتركيز على دوره الفاعل ونتائج دراسته، فإن كان علم النفس يتداخل مع البيداغوجيا وتم اعتماده في العملية التربوية من القديم؛ إلا أن مقولاته كانت مقولات نمطية تقليدية تنزع نزوعا عقليا وتهمل الجانب العاطفي، وهذا ما شكل حاجزا أمام المتعلم الذي يوضع تحت ضغط المثال الأخلاقي وواجب تحقيقه، وتغيب جانب الميول والرغبات، وقد تم التمرد على هذه النزعة التي شكلت أساس المنظومة التربوية خلال القرن التاسع عشر للميلاد، واعتمدت مقولات علم النفس الحديثة التي أقر فيها بالدور «الأساسي الذي يلعبه الاهتمام والميل في حياة الإنسان، وأدرك [أي علم النفس الحديث] أننا لا نحسن إلا العمل الذي نتذوق. وانعكس هذا الموقف على التربية الحديثة فغدت اهتمامات الطفل وميوله محورها ورائدها، وأصبح همها تفجير هذا الاهتمام في نفس الطالب، وجعله

المدخل الأساسي لتعليمه وتثقيفه وتكوينه»⁽³⁷⁾، وعليه فقد استفادت المنظومة التربوية من علم النفس ودراساته لتصميم مناهج تعليمية تتلاءم مع ميول الأطفال ورغباتهم، فكان مصدرا مهما تستمد منه البيداغوجيا الكثير من نظرياتها وتطبيقاتها.

ج. مركزية الطفل واعتباره محور العملية البيداغوجية التربوية: بسبب تركيز المدرسة التقليدية على المعلم وعلى المادة المقدمة من طرفه، فقد حادت الأخيرة عن غايتها الأولى، ومقصدها الأساسي؛ وهو العناية بالمتعلم المراد تكوينه وإعداده، لذلك فقد نادت التربية الحديثة بمركزية الطفل/ المتعلم، كما يذهب إلى هذا "كلاباريد Claparède" «أن نجعل الطرائق والمناهج تدور حول الطفل، بدلا من أن نجعل الطفل يدور حول مناهج سنت في معزل عنه»⁽³⁸⁾، ومراعاة ميوله ورغباته أثناء مساره التعليمي فهو غاية العملية التربوية والانطلاق يجب أن يكون منه لا من المعلم ولا من المادة الدراسية.

د. مبدأ الاستقلال والمدرسة الفعالة: حيث يمنح المتعلم حيزا من الحرية في ممارسة النشاطات البيداغوجية المختلفة «كانت فكرة الفعالية في اصطلاح المدرسة الفعالة، تتضمن فكرة الاستقلال، هذا إذا لم نقل أنها تختلط بها. وقد نادي باستقلال الطالب معظم رواد التربية الحديثة. وإن نذكر نذكر من بينهم المربي الألماني "كرشنشتاينر Kerschensteiner" صاحب مدرسة العمل»⁽³⁹⁾، على أن هذا الاستقلال لا يعني الحرية المطلقة

والخروج من وصاية المرشد ولكنه هامش مهم يضع المتعلم تحت وصاية ضميره الخلقى، ويحرره قليلا من الرقابة المفروضة عليه من طرف المربي أو المعلم.

هـ. توفير بيئة طبيعية: للبيئة المحيطة بالطفل والوسط الذي يتربى فيه دور مهم في تكوينه فإن «كان أصحاب المدرسة الحديثة يفسحون مثل هذا المجال الواسع لاستقلال الطفل، فما ذلك إلا لأنهم يؤمنون إيمان "روسو" و "بستالونزي" بأن الطبيعة خيرة، ولأنهم كثيرا ما يتغنون بها وينادون بجبها حبا رومانطيقيا.»⁽⁴⁰⁾، والخروج إلى الطبيعة يوطد العلاقة بين عملية التعلم، وبين الحياة، بوصف التعلم جزءا من الحياة يُعرِّفنا عليها ويجعلنا نكتشفها أفضل، وهو ليس شيئا منفصلا عنها محبوسا بين أربعة جدران، إذ قد يرتبط مفهوم المدرسة عند شريحة واسعة من الأطفال والمتعلمين بمفهوم الحبس، وكسر الحدود الفيزيائية للمدرسة بنقل عملية التعلم إلى فضاء الطبيعة، سيقضي على هذه النظرة ويعزز لدى المتعلم الارتباط القائم بين التعلم والحياة.

و. أهمية الوسط الاجتماعي: يركز التربويون المعاصرون على أهمية التفاعل الاجتماعي في البيداغوجيا كونه يمنح مهارات لا يستطيع الإنسان المنعزل اكتسابها فلئن «كان مربو المدرسة الحديثة على شيء من الخلاف فيما يتصل بمسألة اختلاط الجنسين، فهم جميعهم يؤكدون فائدة الحياة الجماعية وأهميتها، مخالفين في هذا "روسو"، الذي ينسب إلى المجتمع،

كل آفة يشكو منها الناس»⁽⁴¹⁾، ودون أن تُغفل المدرسة الحديثة تفرد وإبداع الطلبة؛ بجانب في هذا المدرسة التقليدية التي كانت تعامل الطلبة وفق نموذج اشتراكي -إن صح التعبير- حيث تضع جميع الطلبة في مستوى واحد، فإنها سعت لتعزيز الروح الجماعية بين الطلبة من أجل كسر الحواجز بين المتعلمين، وتخريج أفراد لا يواجهون مشاكل في التواصل والتفاعل الاجتماعي، ولعل أبرز النشاطات المساهمة في هذا هي: حصص الرياضة، والواجبات المشتركة، والمشاريع المدرسية، ورحلات التخييم المدرسي، المسابقات المدرسية، وغيرها من النشاطات التربوي التي تخلق تفاعلا بين المتعلمين وتوطد التواصل الاجتماعي بينهم.

لقد أسهمت هذه الثورة في إعادة النظر في أساليب وأنماط التربية والتعليم، وإعادة مراجعة العلاقات الرابطة بين ثلاثي عملية التعلم، وهذا ما أكسب البيداغوجيا مفهومها المعاصر الذي ينطلق من التركيز على العملية التعليمية ودراساتها بهدف تحسينها وتطويرها، وجعلها مستقلة كتوجه متفرد يُعنى بمتابعة المناهج التربوية والدراسية وتصميمها وفق ما تقتضيه سياقات التعلم، آخذة بعين الاعتبار وضعية المعلم والمتعلم والظروف التي تحيط بهما.

إن تتبع سيرورة الخطاب التربوي يجعلنا نلاحظ بوضوح انتقاله من إشكالية تحصيل المعارف إلى إشكالية المناهج والطرائق المؤطرة للعملية التربوية، ولم يأت هذا التحول من فراغ، بل كانت له تراكميته التاريخية التي عرضنا لها بشيء من الإيجاز، والمرحلية، من خلال التركيز على أبرز النقاط التي ساهمت في تبلور البيداغوجيا واستقلالها النسبي عن بقية الحقول المتاخمة لها.

وأخيرا وجب التوقف عند نقطة مهمة تتمثل في البيداغوجيا باعتبارها أديولوجيا تعليمية، إذ لا تخلو طرائق التدريس ومناهجها من قاعدة أديولوجية تنطلق منها وتتأسس عليها، وتسعى لخلق أنماط معينة من الوعي وتشكيل أجيال موجهة بروح تلك الأديولوجيا.

لذلك وجب توخي الحذر ومراعاة هذه النقطة أثناء تطبيق النظريات التربوية، وتعيين المعلمين والمربين والمسؤولين عن تصميم المناهج التربوية؛ فالأمر لا يتعلق بمجرد انتقاء للمعرفة وتصميم طرائق ومناهج تحصيل تتلاءم مع المتعلم، ولكنه يتعلق بمصير أجيال بأكملها قد يتم توجيهها بشكل قصدي إلى أفكار وسياقات توصل إلى نتائج لا تحمد عقباها، عن طريق زرع أفكار دخيلة قد تكون منافية للفطرة البشرية السوية (٥)، لأن عملية الانتقاء هذه وتصميم المناهج ليس بريئا تماما.

11. خاتمة:

ختاما يمكننا القول بأن البيداغوجيا ارتبطت بحقول معرفية عديدة كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم النفس التربوي...، ولم تتمايز عن هذه الحقول إلا في فترة متأخرة جدا إذ إن تداخل مفهومها مع مفاهيم التربية والتعلم جعل منها جزئية في إطار العلوم الإنسانية تتقاسمها حقولها المختلفة؛ غير أن المتأمل في السيرة التاريخية للبيداغوجيا يجد أنها كانت بشكل أساسي أسلوبا في التعليم والتربية وتنشئة الأجيال حتى عند الأمم القديمة، فجملة الأساليب المتبعة من طرف هذه الأمم في تربية وتعليم أفرادها وما يتعلق بشروط تكوين المربي والمعلم تدخل في علم أصول التدريس أو البيداغوجيا اليوم.

إنّ فالبيداغوجيا قديمة قدم الإنسان غير أنّها عرفت كممارسة وكأساليب متنوعة ومتفرقة تتحكم بها سياقات مختلفة تطورت بتطور نمط المعيشة وتحولت تماشياً مع مقتضيات العصر ولم تتبلور كنظرية تطبيقية وكفرع مستقل نسبياً إلا بعد فترة طويلة جداً، ورغم هذه الاستقلالية والتطور الذي حقّقته البيداغوجيا إلا أنّها مرت بأزمة حادة أساسها تهميش المتعلم والتركز على المعلم والمربي وكذلك المادة العلمية، وقد ساهمت الثورة الإصلاحية مطلع القرن العشرين في حل هذه الأزمة وتصحيح المسار البيداغوجي؛ عن طريق إعادة الاعتبار لطرف التعلم المهمش، وتقديم التربية على التعليم، ومراعاة ظروف المحيط الذي يعيش فيه المتعلم، ومنحه مساحة من الحرية لخلق مفهوم المدرسة الفعالة من خلال حكم الطلاب لأنفسهم وتوجيههم لذواتهم.

إنّ الناظر في المسار البيداغوجي يلحظ انتقاله من إشكالية تحصيل المعارف وتربية الأجيال وفق معايير متفرقة ومشتتة ترتكز على مقولات عامة يتعامل معها المربي وفق فهمه الخاص، ونظريات من حقول معرفية أخرى، ويتم نقل المعارف إلى المتعلم وفق هذا بطريقة ميكانيكية، إلى إشكالية المناهج والطرائق التي تجعل من المربي يبحث عن الطرق الناجعة التي يتمكن من خلالها المتعلم من الاستفادة من المعلومة وتوظيفها والتعامل معها بشكل مرّن، وهذا التوجه هو ما شكل القاعدة الأساسية للبيداغوجيا الحديثة كعلم مستقل نسبياً له نظرياته ومناهجه الخاصة.

وكتوصية ارتأينا أهميتها في هذا السياق نبهنا إلى البيداغوجيا باعتبارها موقفاً أدبيولوجياً وتحولها من نظرية تطبيقية تعين الطرق والأساليب الناجعة والمساهمة في نجاح السيرورة التعليمية، إلى وسيلة غير بريئة يتم استغلالها في بذر أفكار خطيرة وهدامة، وتوجيه المتعلمين إلى مقاصد أدبيولوجية يتبناها

المعلم أو الجهة الوصية، مما قد ينجم عنه هدم كامل لقيم المجتمع وضرب أساساته، وتكوين أجيال مُستَلَبَة يسهل السيطرة عليها وتوجيهها.

12. الهوامش:

(1) -البيداغوجيا من ناحية التأصيل، ترتبط بالعبد المسؤول عن اصطحاب الأطفال للمدرسة ودور هذا العبد كان يتلخص في التوجيه والإرشاد ومساعدة الأطفال في العملية التعليمية، ثم تطور مفهومها ليرتبط بالتربية والتعلم فكل ما يتعلق بالعملية التربوية والتعليمية قديما يمكننا أن نطلق عليه تجاوزا بيداغوجيا أو نعتبره جزءا من تاريخ البيداغوجيا، وكان ينطوي تحت عباءة التربية والتحصيل المعرفي ولم يهتم كثيرا بالطريقة أو المنهج التي تقدم بها المعارف إذ يكفي نقلها للمتعلم الذي يجب عليها أن يحفظها، لذلك لا نستطيع فصل البيداغوجيا كما نفهمها الآن (علم تصميم المناهج التربوية) عن مفهوم التربية والتعليم قديما (التي كانت البيداغوجيا تعني فيه التوجيه وإرشاد الطلاب ومساعدتهم في تحصيل المعرفة)، بل إننا ننتبع سيرورتها إلى لحظة انفصالها التي تمايزت فيها كعلم في حدود القرن العشرين، وأصبح مفهومها يتعلق تحديدا بتصميم المناهج الملائمة للمتعلم من أجل اكتسابه المعرفة والحرص على تطور العملية التربوية واستغلال كافة الإمكانيات التي تتيحها الحقول المعرفية والتخصصات الأخرى لإنجاح هذا، وبالمقارنة مع المفهومين نرى أن البيداغوجيا سابقا كانت تفنقر لإستراتيجية تعليمية واضحة إذ كان المعلمون يلقون بالمعلومات على عاتق الطالب وكان على الطالب أن يخزن هذه المعلومات، ولم يكن يؤرق هؤلاء المعلمين قضية الطريقة المثلى لتوصيل هذه المعلومات، وما إن كان الطالب استوعبها أم لا إذ كان فرضا على الطالب أن يحصلها وكفى؛ فكانت بهذا المفهوم التقليدي مساوية تقريبا لمفهوم التربية، في حين أنها حديثا انفصلت عنها وتمايزت لتتحول من فعل التربية إلى تصميم منهج التربية إذ راحت تعالج إشكالية المناهج والطرائق المناسبة للتربية والتعليم بدل أن تكون مجرد ممارسة لهما كما كانت في السابق.

- (2)-ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، (د، ط)، القاهرة، مصر، (د، ت)، ص1546.
- (3)-مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط04، القاهرة، مصر، 2004م، ص 321.
- (4)- عبد الكريم بكار: حول التربية والتعليم، دار القلم، ط03، دمشق، سوريا، 2011م، ص11.
- (5)- كفاح يحيى صالح العسكري وآخرون: نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، تموز للطباعة والنشر، ط01، دمشق، سوريا، 2012م، ص10.
- (6)-ينظر: عبد الكريم بكار: حول التربية والتعليم، مرجع سابق، ص-ص: 18-20.
- 7- Merriam-Webster. (n.d.). Pedagogy. In Merriam-Webster.com dictionary. Retrieved oct 21, 2022, from: <https://www.merriamwebster.com/dictionary/pedagogy>.
- (8)- عبد الله عبد الدائم: التربية عبد التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين، ط05، بيروت، لبنان، 1984م، ص، ص: 14، 15.
- (9)-المرجع نفسه، ص 47.
- (10)-المرجع نفسه، ص 48.
- (11)-المرجع نفسه، ص 28.
- (12)-المرجع نفسه، ص 29.
- (13)-بول منرو: المرجع في تاريخ التربية، ج1، تر: صالح عبد العزيز، مر: حامد عبد القادر، مكتبة النهضة المصرية، ط 01، القاهرة، مصر، 1949م، ص50.
- (14)-Gabriel Compayré: The History of Pedagogy, Translator by: William Harold Payne, Release date: June 12, 2020, p19.
- (15)-Ibid, p19.
- (16)-بول منرو: المرجع في تاريخ التربية، مرجع سابق، ص74.
- (17)-المرجع نفسه، ص80.

- (18)-المرجع نفسه، ص80.
- 19- A History of Pedagogy, Etienne Vellas, PhD in Educational Sciences.
- (20)-Gabriel Compayré: The History of Pedagogy, p44.
- (21)-Ibid, p44.
- (22)-Ibid, p47.
- (23)-عبد الله عبد الدائم: التربية عبد التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، مرجع سابق، ص29.
- (24)-المرجع نفسه، ص31.
- (25)-Gabriel Compayré: The History of Pedagogy, p85.
- (26)-دريد بن الصمة: الديوان، تح: عمر عبد الرسول، دار المعارف، ط01، القاهرة، مصر، 1985م، ص62.
- (27)-قضى الإسلام على العصبية القبلية لكنها انبعثت من جديد أيام الدولة الأموية وتم استغلالها سياسيا لترسيخ أساسات حكمهم.
- (28)-عبد الله عبد الدائم: التربية عبد التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، مرجع سابق، ص155.
- (29)-ينظر: المرجع نفسه، ص، ص: 184، 185.
- (30)-المرجع نفسه، ص190.
- (31)-المرجع نفسه: ص، ص: 190، 191.
- (32)-يمكن الإطلاع على هذه المراحل بالتفصيل من كتاب: "The History of Pedagogy" ص-ص: 83-187. وكذلك من كتاب "المرجع في تاريخ التربية" لـ بول منرو، ج02، الذي تعرض فيه إلى عصر النهضة ونظريات التربية والتعليم المختلفة التي تطورت في ظل تطور العلوم خصوصا علم النفس وعلم الاجتماع وقد فصل فيها تفصيلا وافيا.

33- A History of Pedagogy, Etienne Vellas, PhD in Educational Sciences.

- (34)- عبد الله عبد الدائم: التربية عبد التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، مرجع سابق، ص 481.
- (35)- المرجع نفسه، ص 502.
- (36)- المرجع نفسه، ص 504.
- (37)- المرجع نفسه، ص 509.
- (38)- المرجع نفسه، ص 513.
- (39)- المرجع نفسه، ص 524.
- (40)- المرجع نفسه، ص 530.
- (41)- المرجع نفسه، ص 534.

(*)- في المجتمعات الغربية، وفي أمريكا مثلاً؛ يتم توجيه الأطفال في مرحلة مبكرة جداً من أعمارهم من خلال التأثير النفسي لاختيار الجنس الذي يجدونه مناسباً لهم (ذكر أو أنثى)، وفق نظرية تقول بأن جنس الإنسان الفعلي ليس هو الشكل الذي ولد به، ولكن ما يحسه من الداخل أو ما يشعر به، فقد يولد الإنسان ذكراً في جسم أنثى والعكس، فيعمد هؤلاء المربون إلى سؤال الأطفال عن أحاسيسهم وميولاتهم، فإن أجاب أحد الأطفال الذكور بأنه يميل إلى كونه أنثى، أو تقول الأنثى بأنها تحس أنها ذكر؛ يتم التعامل معهم وفق هذا الأساس، ومن ثم العمل على تحويلهم جنسياً، وهذا ما جعل من ظاهرة المتحولين جنسياً -وهي ظاهرة اجتماعية خطيرة جداً-، تنتشر انتشاراً واسعاً حتى صرنا نرى انعكاساتها بشكل كبير في مجتمعاتنا العربية، ورغم الاعتراضات الشديدة على هذا الأمر في تلك المجتمعات إلا أن الأمر انتشر بطريقة مريعة وتطور ليخرج من هذا النطاق ليشمل المتحولين إلى حيوانات (وظاهرة الكلاب البشرية أبرز ظاهرة) وتحولات أخرى لا تستقيم مع الفطرة السوية، وبإدخال تقويم سلوك الطفل وإرجاعه إلى فطرته إذا ما ظهرت عليه ملامح هذه الانحرافات، أو إذا أخطأ أو قال شيئاً دون إدراك منه (كقوله أحس أنني أنثى/ ذكر، أو تصرف تصرفات معينة كارتدائه ملابس فتاة/ فتى)، فإنه يتم التأثير عليه

نفسياً لتعميق الانحراف وخدمة هذه الأفكار السقيمة التي لا يقبلها العقل ولا العرف، وهو الأمر الذي حصل مع "روب هوغلاند" المواطن الكندي الذي اعترض على تحويل ابنته إلى ذكر حيث عبرت الفتاة عن سلوكات غير قويمية تشير إلى انحرافها وعندما عرضها "روب" على مستشار المدرسة لتقويم سلوكها وجد أن المدرسة تدعم تحولها، حيث قال "روب":

«أن ابنته بدأت تحدثه عن رغبتها في تحويل اسمها لاسم مذكر، وقالت له أنها بحلول الصف السابع ستغير اسمها وتضعه في الكتاب السنوي للمدرسة على أنه اسم مذكر. كما شاهدها وهي تتابع بعض الأفلام عن أشخاص متحولين جنسياً. لذا أحالها روب لرؤية مستشار المدرسة على أمل تحسين سلوكياتها وتغييرها. ولكن لم تؤيد المدرسة الأب في مخاوفه على الإطلاق، بل على العكس شجعت المدرسة ابنته على إحداث هذا التغيير، ووعدها أنهم سيجرون تغييراً في الكتاب السنوي، وسيذكرون اسمها على أنها ذكر بدلاً من أنثى. وهنا استشاط روب غضباً من دعم المدرسة لابنته، وقال: "إنهم مجرد أطفال لا يفكرون في المستقبل، وهم يتخذون قراراتهم بناء على المشاعر وبشكل عشوائي، من دون أن يفكروا بتكوين الأسر وإنجاب الأطفال". من جهتها، حاولت زوجة هوغلاند السابقة البحث في علاجات سريرية محتملة لحالة ابنتها، وزارت الطبيب والاس وونغ. ولكن لم تفلح تلك المحاولات، نظراً لأن المدرسة أوصت الطبيب وونغ بشكل مباشر بحالة الطفلة، وبدلاً من أن يعالجها من الاكتئاب، توجه إلى فرض أفكاره عن التحول الجنسي على عقل الفتاة المضطرب.» (مصدر الاقتباس: <https://cutt.us/xCYlo>).